

# بطولة

## كأصواتها الأدبية الجاهلية

الدكتور ناصر الدين الأوس

بقلم

وثالث هذه المعاني ان يقصد بالبطولة معنى اصطلاحى في النقد الادبي حين يكون البطل في الاثر الفني هو « الشخصية الاولى » او مجموعة « الشخصيات الرئيسية » التي يرمز بها لتصوير صفات بعينها تمثل جوانب في حياة الناس والمجتمع ، يكون فيها الخير والشر والقوة والضعف، والوفاء والغدر ، والحب والبغض ، فتندمى الى الاعجاب والمحاكاة ، او الى الازدراء والنفور .

✱ ✱

اما القضية الثانية من مقدمات هذا الموضوع ، وهي التي تتمثل في الشق الاخير من العنوان ، فهي قضية « الادب الجاهلي » . والحديث عن هذه القضية حديث عن مصادر هذا البحث واصوله ، وبيان لقيمتها التاريخية والفنية . ولهذا الحديث جانبان :

اولهما - الشعر الجاهلي : واحسب ان قضيته قد فرغ منها بعد ان صححت الدراسة العلمية الحديثة موازينه ، وهذات الضجة التي افتعلت من نحو ثلاثين عاما ، وتكلف اصحابها من العناء والمشقة في قسر النصوص وتحميلها ما لا تحتمل من الدلالات وفي تعميم الاحكام الجزئية تعميما واسما يبعد بها عن الصواب - تكلفوا في كل ذلك ما اثار حولها وحولهم غبارا كثيفا لفت الانظار وغشاها حينا ، ثم انقشع ولم يبق منه - في مقاييس العلم الصحيح - شيء سوى اثار يسجلها مؤرخ الادب حين يعرض لهذه الحقبة من تاريخنا .

ولا نحسب ان باحثا جادا يتبع ما جد من الدراسات الحديثة في هذا الموضوع ، ثم يستقرى اصوله القديمة استقراء قائما على الفهم والبصر والمعرفة بحياة القوم ، لا نحسب ان باحثا هذا شأنه الا وهو يدرك ان الدراسة الحديثة بشقيها : الداخلي الذي ينقد النصوص نقدا فنيا ، والخارجي الذي يتتبع مصادرها تنبعا تاريخيا ، قد اثبتت لهذا الشعر - في مجموعه - الصحة والاصالة ، وان كان عرض لبعضه ما يعرض - مع التفاوت - لاداب الامم كلها في جميع العصور من وضع لبعض الشعر او نحل ، ومن اضطراب في نسبة بعضه وفي روايته لاسباب تاريخية معروفة .

والجانب الثاني للادب الجاهلي هو : النثر . ولا نقصد به هذا القدر من العبارات القليلة التي بقيت من تراننا ، من مثل : سجع الكهان ، والتلبية والحكم ، والامثال ، فهذه كلها قد تزود المدارس بـ اشارات ودلالات يستخلصها منها ويرتب عليها بعض الاحكام ، ولكنها في مجال هذا البحث ليست بذات غناء .

وانما نقصد بالنثر هذا التراث الخصب الذي خلفته لنا الجاهلية من سير رجالها ونسائها وحوادث قبائلها واياها ، وصور مجتمعا وحياتها ، بادق تفصيلاتها وواضح معالمها ، وتناقله الافراد والاجيال - كما يتناقل

مقدمات هذا الموضوع لا تقل قيمة عن الموضوع نفسه ، بل هي منه في الصميم ، ولا يستقيم وجه الحديث عنه الا بها . واذا كان بعض المقدمات نافلة وفضلة يستكثر بها الباحث لامر لا يتصل بجوهر البحث اتصالا وثيقا ، فان الترابط المتين بين مقدمات هذا الموضوع والموضوع نفسه يجعل التجاوز عنها اخلايا بالمنهج وانتقاصا من البحث .

وفي هذا الموضوع قضيتان لا بد من التلبث عندهما ، تتمثلان في طرفي العنوان : « البطولة » و « الادب الجاهلي » ، ولكل منهما حديث طويل نجتزئ منه هنا بالقدر الذي لا يخرج به عن التقديم ولتمهيد .

✱ ✱

اما « البطولة » فنحسب ان لها من تعدد المعاني ما يقتضي التوضيح والتحديد ثم اختيار المعنى او المعاني التي قد يشملها عنوان هذا البحث ويدور عليها الحديث .

واول ما يعرض من معانيها ان يقصد بها « بطولة الحرب » وما ينطوي فيها من الفروسية والقوة والغلبة . ولهذا المعنى ، او « المضمون » - كما يحب المحذون ان يقولوا - صورتان من التعبير :

اولهما - ما اطلق عليه الباحثون الفرييون اسم « الشعر القصصي » او « شعر الملاحم » ، وهو ما يجتمع لشاعر نظم قصيدة طويلة يقص فيها ضروب البطولة التي تمثلت في رجل فرد ، او في عدد من الرجال الابطال، او يؤرخ فيها حوادث امة في فترة بعينها من تاريخها ، فيصوغ مسا انحدر اليه ممن سبقه من اخبار الوقائع وصور الحوادث ، ويتسلسل بها في اسلوب قصصي متتابع .

والصورة الثانية من صور التعبير عن « بطولة الحرب » هي التي اطلق عليها العرب القدماء اسم « شعر الحماسة » وهي هذه القصائد والمقطعات المتفرقة التي ينظمها شعراء متعددون ، يفخرون فيها بانفسهم او بابطال قبيلتهم وقومهم ويشيدون بما ابدوا من ضروب القوة والفروسية ، وما اتيح لهم من اسباب النصر والغلبة . فيدور قصيدهم حول شتيبت من المعاني المتفرقة لا ينظمها اسلوب قصصي متتابع ولا استقصاء لاجزاء الحوادث والوقائع ، وبذلك ، لا يتم لها استكمال صورة واضحة المعالم لسير موقعة او لاعمال فرد او لحياة امة .

اما المعنى الثاني للبطولة فيتسع حتى يشمل « بطولة النفس » في كل ما يتمثلها به المجتمع الذي يعيش فيه الانسان ، فيصبح البطل مثلا يحتمى في : الصبر على الشدائد ، وتحمل المشاق ، ونجدة المضاف ، واغاثة اللهوف ، وبذل ما في الوسع - وفوق ما في الوسع - قرى للضيف ونائلا للسائل ، وفي : الحكمة ورجاحة العقل وسداد الراى والمنطق ، والحلم عن قدرة ، والوفاء بالمعهد ، والحفاظ على الذمام ، وابعاء الضيم ، والترفع عن الدنيا ، والتحلّى بكل ما يراه مجتمعه فضيلة في النفس والخلق .

التراث القومي في كل امّة الى ان دون بعد زمن، فبقى لنا في طيات كتب الادب والتاريخ والنسب، وامتلأت به صحائف مما كتب ابو عبيدة على النفاض، ثم الجاحظ والمبرد وابن قتيبة والطبري، ثم ابن الانباري في شرحه على المفصليات، وما جمعه لنا ابو الفرج في اغانيه، وابن عبد ربه في عقده، وغيرهم .

✱ ✱

ومن هنا نتلمس بداية الطريق، فهذا النثر الذي تأخر تدوينه فرنسا وبعض قرن هو ميراث الجاهلية في مادته كلها، تناقلته الجاهلية تناقل الحفي به، والحريص عليه، الحافظ له. كانوا يتناشدون شعره ويقصون نثره في مجالسهم ومواسمهم واسواقهم وسمرهم، يتنافرون ويتفاخرون، وينقطع لرواية الشعر والخبار رواة يتفرغون بعينه فينسيبون اليه، ورواة من القبيلة لا يقتصرون على شاعر منها وانما يجمعون بين شعرائها كلهم، يروون من شعرهم وخبار ذلك الشعر مفاخر القبيلة في وقائعها ومحامدها، ومضوا على ذلك رواية بعد رواية وجيلا بعد جيل، الى ان قبض لهذا التراث التدوين والتسجيل. وذلك شأن كل تراث قومي في كل امّة كذلك كانت الايادى والاولاد، وكذلك كانت المهابرات والريمايات تناقلها الرواة وتناشدها الناس، ثم مضت على ذلك ازمان الى ان دوت .

ولو اخذنا ايام العرب في الجاهلية يوما يوما، لوجدنا في كل يوم من الاخبار القصصية ومن الشعر الحماسي، وما يطوي في ثناياه خصائص الملاحم كما عرفتها الامم الاخرى :

فالواها - انه ادب قصصي، يحكي في تسلسل وتتابع قصة واحدة اصلية قد تتشقق عنها قصص تتصل بها وتوضح بعض جوانبها .

وثانيتها - ان هذا الادب يقص وقائع وحروباً تقتتل فيها قبائل، ويصطرع فيها ابطال ويسقط فيها صرعى وتسيل دماء، وتظهر فيها آيات من البطولة والشجاعة والقوة .

وثالثتها - ان هذا الادب يصور في كل يوم من ايامه نماذج بشرية ذات ملامح واضحة وقسمات بارزة سواء اكان ذلك في شجاعتها وقوتها ام في فضائل نفسها وخلقتها .

ورابعتها - ان هذا الادب لم يصطنعه واحد بعينه في زمن متأخر، كما فعل فرجيل في انيادته، والفرودوسي في شاهنامته، وملتون في فردوسه، وانما جرى في النفوس مع الوقائع ودار على الالسن مع الحوادث، فهو ميراث الامّة كلها، وهو تراثها الشعبي كما نقول اليوم، وكذلك كانت الملحمتان اليونانيتان والملحمتان الهنديتان .

وئمة امر لا يد من تدبره وادارة الحديث عليه، وهو اننا لا نحسب ان نتكلف لهذا الادب تسميته «بالملاحم» - بالمعنى الاصطلاحي، على اجتماع خصائص الملحمة له وتوافر عناصرها فيه . وليس بمجد امّة ان تتزبد وتتستكر في ادعاء امور استكملت صورتها على وجه محدد عند امم اخرى، واستقامت لها دلالات اصطلاحية استقرت معالمها في التاريخ الادبي . وليست لكل امّة ملحمة - بهذا المعنى، ولا غير عليها في ذلك، فليس يشين امّة الا يكون فيها ما كان في غيرها، ولكل امّة - في نشأتها وتطورها - بيئة طبيعية وظروف اجتماعية واصول للفكر والتصوير والتعبير - مفارقة ما لغيرها، وبذلك تتفاير صور النشاط الفكري والفني في الامم، وكلما تقاربت بيئاتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية واصول فكرها وتصورها وتعبيرها تشابهت صور نشاطها الفكري والفني، وامكنت

اذن الموازنة والمقارنة . اما اذا اختلفت المقدمات فلا بد ان تختلف النتائج، وحينئذ لا سبيل الى تعسف الطريق وقسر الالفاظ والدلالات لمجرد التشابه العام الطبيعي في العقل الانساني والوجداني البشري والتطور الحضاري .

وهذا الميراث الادبي الذي خلفته لنا الجاهلية ليس «عملا فنيا» ذا وحدة مترابطة متصلة . حقا ان فيه شعرا كثيرا ولكن اطاره العام الذي يمسكه من حوله ويجمع اطرافه ويصل حلقاته هو النثر - وكذلك كان شأن تراثنا الشعبي الى عهد قريب حين كان الشاعر على ربابته يقص حكاياته، وكان يلقيها نثرا تتسلسل معه القصة، وحين يصل الى مواقف بعينها ينتقل من القصص النثري الى الانشاد الشعري، وكذلك هو ادبنا الشعبي المدون من مثل قصة «عنتر» و «ابو زيد الهلالي» و «الف ليلة وليلة» . ولعل هذا الادب كان في الجاهلية كذلك حين كانوا يقصون اخبار وقائعهم واياهم، ولعل هذا الذي وصل الينا منه كان عندهم عملا فنيا ذا وحدة متصلة، ولكنه يقينا ليس كذلك كما هو الان بين ايدينا، ولم يقصد الرواة والعلماء الذين جمعوه ودونوه في القرن الثاني - الى ان يكون ذا صفة فنية، وانما كان هدفهم جمع الشعر، ثم كان كل هذا النثر القصصي لشرح الشعر وبيان غامضه وتفسير اشاراته التاريخية .

✱ ✱

وبعد

فمن هذا التراث الجاهلي الخصب : شعره ونثره، نستطيع ان نستشف صورة «البطولة» كما عرفوها واحسوا بها، ونستطيع ان نرسم ملامح «نموذج» البطل الذي كانه العربي الجاهلي . هذا النموذج الذي ما زلنا حتى الان - على اختلاف العصر وتغير المعالم والمظاهر، تهتذ له نفوسنا، ونتشوق له ونتشوق . ويبدو ان هذا النموذج العربي الجاهلي بلغ من الاصاله وعمق الحياة في نفوس هذه الامّة مبلغا جعل نماذج البطولة في الادب الشعبي جاهلية، على ما اضيف اليها من نلال واللوان متعددة في كل عصر : فسيف بن ذي يزن، وعنتر ومهلل وكليب - كل هذه النماذج جاهلية، انحدرت اصول قصصها ومعالم شخصياتها من الجاهلية، وانسربت في القرون قرنا بعد قرن، ترتدي في كل مرحلة غلالة جديدة تسجها حياة الناس في ذلك العصر، ولكنها لا تكاد تخفي اصولها العربية الجاهلية الاولى .

ولصورة هذا «النموذج» من البطولة العربية خطوط عامة عريضة، نكتفي - في هذا المجال - بالاشارة اليها، ونودع تتبع اجزاها واستقصاء تفصيلاتها الى دراسات مستقلة تختص كل دراسة باحد خطوط هذه الصورة : تسير اغواره وتستشف دلالاته، وتستشهد له بما يكفل توضحه من الشعر والنثر، ويكون لها مجال اخر غير ما نحن فيه في مؤتمرها هذا الذي يجدر به ان يقتصر على ارساء الاسس وتاثيل الاصول ليستهدى بها - بعد ذلك - عند التطبيق في مجال البحوث الجزئية والدراسات التعليمية .

✱ ✱

واول ما يظهر للباحث من قسّمات هذه الصورة خط كبير اصيل، يتصل بجوهر البطولة العربية الجاهلية واساس كيانها . فليست بطولة العربي في الجاهلية بطولة غيبية خرافية، يصور مصادر القوة فيها الوهم، ويهذى

- التتمة على الصفحة 117 -

## البطولة في الادب الجاهلي

— تمة المنشور على الصفحة ٤٤ —

بها الخيال ، فيكرها العقل ، ويستعصى فهمها وتعليلها على الانسان ، ولا يملك حبالها الا التسليم والاستسلام . لم يكن البطل العربي مسن رحم السماء على قمم الجبال ، ولم يكن من سلالة الالهة وانصاف الالهة واشباهها ولم تكن في بعض اعضاء جسمه مكامن للقوة نفتتها فيه قوى سحرية غيبية ، ولم يكن تؤيده ارواح غير منظورة ، ولم تكن تسعى معه او تسعى عليه وحوش اسطورية خرافية .

بل كانت البطولة العربية الجاهلية تنبع من اعماق الانسان ، من اغوار وجوده البشري ، وتسمى معه على الارض ، وتدرج في المجتمع من حوله ، كانت بطولة انسانية بشرية تستمد وجودها وحياتها ومظاهرها من واقع الناس : يرونها ويسمعون عنها فيعرفونها ولا ينكرون من امرها شيئا ، ويصرون لها مشابهة تستقيم مع الفهم وتنطبق على الحقيقة الواقعة ، كانت بطولة واضحة مسوطة كوضوح صحراوات الجزيرة وانسائها .

ومن هنا اختلفت البطولة العربية كما يصورها الادب الجاهلي عن البطولات الاخرى التي صورتها لنا الملاحم المعروفة والاداب الشعبية عند الامم من غير العرب .

وثاني الخطوط العامة في صورة هذا « النموذج » ان هذه البطولة لم ترن اليها ابصارهم وتهف اليها نفوسهم ، ولم تمش في وجدانهم وتخلد في ذاكرتهم وتتناقل قصصها اجيالهم ، لما فيها من ظاهر البطولة الحربية في شجاعتها وقوتها وغلبيتها . لقد كانت هذه البطولة الحربية مظهرا يطوي في ثناياه دلالات ، ووسيلة تتحقق بها معان ، وكانت هذه الدلالات والمعاني هي التي تكون « المضمون » الحقيقي للبطولة ، وبغيرها تكون البطولة الحربية — فيما يرون — شيئا نافعا عابرا ضائعا لا يستحق الذكر والتخليد . ومن اجل هذا نجد كل فخر بالشجاعة والقوة ، وكل تمدح بمقارعة الاقران والغلبة عليهم ، مقرونا — قران ترابط وتلازم — بذكر تلك المعاني والدلالات لتتم الصورة الحقيقية للبطولة فالبطل يقارع الاعداء ويصرعهم : يذب بذلك عن الحرمات ، ويحمي الذمار ، ويدرك الثار ويعف عند المغمم ، او يأخذ ممن يملك ليقسمه على من لا يملك ، ويقرى بسه الضيف الطارق حين لا يجد له قرى ، او ليدفع عن مستجير اذى ، او يفي بنمة ويحفظ عهدا .

كانت « البطولة الحربية » اذن عند العربي في الجاهلية وعاء تملأه هذه الجوانب المتعددة من « بطولة النفس والخلق » ومنها مما تكتمل الصورة الحقيقية للبطولة التي عاشت في ضمير العربي وتمثلها وجدانه . بل لقد بلغ احساس العربي بهذه المعاني من الازهاف والعمق مبلغا جعله يخرج بها الى الغالة ، فيبلغ قمة التمثل لها والشعور بها : لقد كانت هذه المعاني اصلا استجابة طبيعية لروح المجتمع من حوله ، فاخذ يحققها فيما يقتضيه مثل هذا المجتمع وقيمه وما تفرضه عليه احتياجاته الاجتماعية ، ولكنه — لفرط احساسه بهذه المعاني ، وعمق تجاوبه باصدائها — اصبح همه ان يحققها على اي وجه جاء هذا التحقيق : فسار يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه وصار يجير الوحش فلا يهاج ، ويجير الجراد فلا ينفر ولا يؤذي ، بل لقد صار يجير على الدهر .

حتى اولئك الصماليك الذين اتسمت حياتهم في ظاهرها — بالفردية والخروج على المجتمع ، والذين كان ينبغي ان تقودهم هذه الحياة السي الانخلاع من هذه المعاني والانفصال عن رحابها ، بحيث تنحصر بطولتهم الفردية في مظاهر القوة وحدها وتقتصر على النهب والسلب لذاتها ، فيمضون بما يفنون ما افتقدوا من روابط اجتماعية حتى اولئك الصماليك تمثلت فيهم هذه المعاني تمثلا جليا ، وحسبنا ان نقرا في ذلك قصائد

الشنفري وخاصة لاميته ، وقصائد تابط شرا وخاصة رثاه الشنفري ، وقصائد عروة بن الورد ، وغيرهم — وهم كثر — لنستبين في وضوح ان تمدحهم وتمجدهم لم يكن بمظاهر بطولتهم في القتال ، وانما كان بما تحفقه هذه البطولة من معان نفسية وخلفية واجتماعية .

وخط ثالث عام في صورة هذا « النموذج » هو هذا الاحساس العميق الذي كانت تجيش به نفس العربي نحو : فرسه ، وسيفه ، ورمحه . لم تكن مطايا واليات للقتال ، بل كانت نفوسا حية ، يعايشها ، ويناجيها ، ويتسمع لحديثها ، يفهم عنها وتفهم عنه ، ويستجيب لها وتستجيب له ، ويشركها في امره ، كانت بضعة منه : من نفسه ، كانت بعض اسرته ، لها اسمائها والقابها ، يدعوا بها ، ويعتز بالنسبة اليها ، فكان اقصى ما يصل اليه البطل ان يعرف به ، ومن هنا كان : فارس الضحيا ، وفارس الشوها ، وفارس الشهباء ، وفارس الصرماء ، وفارس الشميط ، وفارس قرزل ، ومن هنا كان : صاحب الصمصامة ، وذو الرمحين ، وملاعب الاسنة ، وجذل الطعان .

هذه الصلة النفسية الصادقة كانت تآبي على الفارس ان يمتطي فرسه لفر ما مكرمة يكسبها لنفسه او لقومه وتلك المشاركة الوجدانية الحية كانت تربا بالبطل ان يمتشق حسامه او يفوق سهمه او يرمي برمحه في غير ما محمدا يصيب خيها غيره ، فتؤثر عنه ويشيع خبرها ، فتملأه غزاة وفخرا .

وخط رابع من خطوط صورة هذا « النموذج » ان البطل العربي في الجاهلية قد تدفقت بطولته في حسه تدفقا عميقا اصيلا حتى تفجرت بها نفسه بيانا وشعرا ، وجميع « النماذج » الكبرى للابطال الجاهليين الذين خلد تاريخنا ذكرهم لهم من الشعر ما يبلغ لبعضهم ديوانا ، ومع الشعر اجتمعت لهم الحكمة ، وسداد الراي ، والبصر النافذ في شئون الحياة . فكان كثير من هؤلاء الابطال يسودون قومهم في السلم فيصدرون عن رايهم ، ويقودونهم في الحرب فلا يعصون لهم امرا .

وكما كان الناس يقصون اخبار البطل في وقائه فتكون مادة للاحتذاء والافتداء وشجد الهمم واستحياء النفوس ، كانوا كذلك يروون شعره الذي تنفجر به نفسه بيانا عن بطولته في الحرب وعن مآثر هذه البطولة ومصادرها النفسية ونتائجها الاجتماعية ، وبذلك كان هذا الشعر يسر من الخلال ما يبقى حيا في نفوس الاجيال بعد الاجيال .

ومن خلال هذا التراث نستطيع ان نستشف مقومات النفس العربية وخصائص بطولتها ، ولا بد حتى تستقيم صورتها في نفوسنا ان نصل ما بيننا وبين هذا التراث ، وان نعيد تمثله تمثلا حيا مستقصا واعيا حتى يكون تجدنا تطورا ناميا متصلا بجذور اصيلة ثابتة .

ناصر الدين الاسد

صدر حديثا :

### الحياة الجنسية عند العرب

للدكتور صلاح الدين لمنجد

- ✦ دراسات جريئة عن الحياة الجنسية عند العرب
- ✦ تكتب لأول مرة
- ✦ موقف الاسلام من الجنس
- ✦ الحرية الجنسية على اختلاف العصور
- ✦ الجنس في الادب الشعبي .
- ✦ تحليل دقيق لاهم التأليف الجنسية .